

الباب الثامن والثلاثون

فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلّى : أن لا يكون مشغول القلب بشىء قَلَّ أو كَثُرَ ؛ لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقوموا الصلاة كما أمروا ؛ لأن الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعائًا بالباطن لربّ البريات ؛ لأن حضور الصلاة بالظاهر إذعان الظاهر : (وفراغ القلب فى الصلاة عمّا سوى الله تعالى إذعان الباطن) فلم يروا حضور الظاهر وتخلّف الباطن حتى لا يختل إذعانهم فتتخرم عبوديتهم فيجتنب أن يكون باطنه مرتها بشىء ، ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد : (إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء) .

ولا يصلى وهو (حاقن) يطالبه البول ، ولا (حازق) يطالبه الغائط . والحزق أيضًا : ضيق الخفّ .

ولا يصلى أيضًا وخفه ضيق يشغل قلبه ؛ فقد قيل : (لا رأى لحاذق) قيل : الذى يكون معه ضيق .

وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها .

والاهتمام المفرط ، والغضب ، وفى الخبر : (لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ، ولا يصلين أحدكم وهو غضبان) .

فلا ينبغى للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتمّ الهيئات ، وأحسن لبسة المصلّى سكون الأطراف وعدم الالتفات ، والإطراق ، ووضع اليمين على الشمال ، فما أحسنها من هيئة عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز ، وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ، وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة : وقد حرّكت يدي فى الصلاة وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال : عندنا أن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغى أن يبقى جمادًا مجمدًا ، لا يتحرك منه شىء وقد جاء فى الخبر :

(سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات ، والعب بالشيء من الشيطان أيضاً) . وقيل : السهو والشك .
وقد روى عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال : إن الخشوع في الصلاة : أن لا يعرف المصلي من على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .
وروى عن معاذ بن جبل ، أشد من ذلك ، قال : من عرف من على يمينه وشماله في الصلاة متعمداً فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته فصلاته باطلة .
قال بعضهم : لأن ذلك عدده عملاً .
وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(١) قيل : هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبير الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما في ضميرك .

ومثل في صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك .
وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار ؛ لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس .

فيكون هذا التمثيل تداوياً للقلب ، لدفع الوسوسة .
أخبرنا شيخنا ضياء الدين السهروردي ، إجازة ، قال : أخبرنا عمرو بن أحمد الصفار ، قال : أخبرنا أبو بكر بن خلف قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان . فأما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهده .

قال أبو سعيد الخراز : (إذا ركع فالأدب في ركوعه أن ينتصب ، ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منع مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله . ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء . وإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك) .

(١) آية رقم ٢٣ من سورة المارج .

وقال أيضاً : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد فى التلاوة فالأدب فى ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى .

أو كأنه يقرأ على الله تعالى .

وقال السراج أيضاً : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ، ونفى كل شىء غير الله تعالى .

فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب ، فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة . فيبكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا فى الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب . فكأنهم أبدأ فى الصلاة . فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه .

وكان يُجلس واحداً من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى .

وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب فى المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب ، وخضوع الأركان بلا ارتقاب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب .

فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب ، فهو مُصلٍ لاهٍ ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مُصلٍ ساهٍ ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مُصلٍ خاطيء ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مُصلٍ جافٍ ، ومن أتاها كما وُصف فهو مُصلٍ وافٍ .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ : (إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلاً على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل فى صلاته وليس عليه وزن^(١) .

وذكرت السرقة عند رسول الله ﷺ ، فقال : (أى السرقة أقيح) ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال : (إن أقيح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته) ، قالوا : كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال : (لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها) .

(١) متفق عليه .

وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قَدِمَ للإمامة فقال : لا أصلح ، فلَمَّا أَلحُوا عليه كبير فغشى عليه ، فقدموا إمامًا آخر ، فلما أفاق سئل فقال : لِمَا قلت استوتوا هتف بى هاتف : هل استويت أنت مع الله قط !!

وقال عليه الصلاة والسلام : (إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت : حفظك الله كما حفظتنى ، ثم سعدت ولها نور حتى تنتهى إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضعها قالت : ضيعك الله كما ضيعتنى ثم سعدت ولها ظلمة حتى تنتهى إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها)^(١) .

وقال أبو سليمان الداراني : إذا وقف العبد فى الصلاة يقول الله تعالى : ارفعوا الحجب فيما بينى وبين عبدى فإذا التفت يقول الله : ارفعوها فيما بينى وبينه وخلوا عبدى وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الوراق : ربّما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحيى من الله حياء رجل انصرف من الزنا !!

قوله هذا لعظيم الأدب عنده ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظّه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرورهم بين يديك . قال : إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدي .

وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يُعرف من تغيّر لونه . فيقال له فى ذلك فيقول : أتدرون بين يديّ من أريد أن أقف ؟

وروى عمّار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يفعل)^(٢) .

وقد ورد فى لفظ آخر : (منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والثلث والرابع والخمس حتى يبلغ العشر)^(٣) .

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه ابن ماجه .

قال الخواص : ينبغي للرجل أن ينزى نوافله لنقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء .

بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي فريضة ، يقول الله تعالى مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين . وقال أيضاً : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين : إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض ، والثانية : أنهم عملوا أعمالاً بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله أن يقبل من عامل عملاً إلا بالصدق وإصابة الحق .

وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين ، إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع .

وإن تتأب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ، ولا يلزق ذقنه ب صدره ، ولا يزاحم في الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم .

وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيّق على أهله فقام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل .

وروت عائشة ، رضی الله تعالى عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يسمع في صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهم والحضور بين يدي الله .

وقال الحسن : ماذا يعزّ عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ! !

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه فقال : إذا دخلت الصلاة فهب لي من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع ، فإنّي قريب .

وقال أبو الخير الأقطع^(١) : (رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقلت : يا رسول الله أوصني . فقال : يا أبا الخير ، عليك بالصلاة ؛ فإنّي استوصيت ربّي فأوصاني بالصلاة ، وقال لي : أن أقرب ما أكون منك وأنت تصلّي) .

(١) هو : عباد بن عبد الله التيناتي . قال المناوي : هو (التيناتي) نسبة إلى (تينات) قرية ببلاد المشرق . وأصله من المغرب وقدم من المشرق وصحب ابن الجلاب . ومات سنة ٣٤١هـ ودفن بمصر بقرب قبر ذي النون المصري .

وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما : ركعتان فى تفكير خيرٍ من قيام ليلة .
وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتمًا الأصمّ واقفًا يعظ الناس فقال له :
يا حاتم ، أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ قال :
أقوم بالأمر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع
بالخشوع ، وأسجد بالتواضع ، وأقعد للتشهد بالتمام ، وأسلم على السنّة ، وأسلمها إلى
ربى ، وأحفظها أيام حياتى ، وأرجع باللوم على نفسى ، وأخاف أن لا تقبل منى ،
وأرجو أن تقبل منى وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمنى ، وأعلمها من سألتنى ،
وأحمد ربى إذا هدانى .

فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظًا .
وقوله تعالى : ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(١) قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من
الاهتمام . وقال عليه الصلاة والسلام : (من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشيء
من الدنيا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه)^(٢) .

وقال أيضًا : (إن الصلاة تمسكن وتواضع ، وتضرع وتنادم ، وترفع يديك وتقول :
اللهم .. اللهم فمن لا يفعل فهى خداج)^(٣) أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان فى أقطار الأرض ؛ خوفًا منه ؛
لأنه تاهب للدخول على الملك ، فإذا كبر حجب عنه إبليس . قيل : يضرب بينه وبينه
سرادق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال : (الله أكبر) اطلع الملك فى
قلبه ، فإذا لم يكن فى قلبه أكبر من الله تعالى يقول : صدقت ، الله فى قلبك كما
تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت
السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات .

إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على
نقطة العسل فإذا كبر أطلع الله على قلبه ، فإذا كان شيء فى قلبه أكبر من الله تعالى
عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر فى قلبك كما تقول . فيثور من قلبه دخان
يلحق بعنان السماء ، فيكون حجابًا لقلبه عن الملكوت ، فيزداد ذلك الحجاب صلابة ،

(١) آية رقم ٤٣ من سورة النساء .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه ابن ماجة .

ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه ، وينفث ، ويوسوس إليه ، ويزين ، حتى ينصرف من صلاته ، ولا يعقل ما كان فيها .

وفى الخبر : (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) .

والقلوب الصافية التى كمل آدابها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير فى السماء كما تدخل فى الصلاة ، والله تعالى ، حرس السماء من تصرف الشياطين ، فالقلب السماوى لا سبيل إلى الشيطان إليه فتبقى هواجس نفسانية ، عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب ، تدرج بالتقريب ، وتخرج فى طبقات السموات ، وفى كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شىء من ظلمة النفس ، ويقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس فى نور القلب اندراج الليل فى النهار ، وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسيرٌ من كثير ، وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا .

وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ؟

وسلكوا طرقاً من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ، ومحو الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام وقومٌ آخرون سلكوا فى ذلك طريقاً أدتهم إلى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل ، واغترتروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله فى كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسراراً وحكماً لا توجد فى شىء من الأذكار ، فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد فى دار الدنيا إعراضه عن الأعمال عبداً للطغيان ، فالأعمال تزكو بالأحوال والأحوال تنمو بالأعمال .